ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

"22عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"

العدد (5980) السنة الثالثة والعشرون - الاثنين (8) أيلول 2025

www.almadasupplements.com

ذاكرة عراقية

بين مقهى الزهاوي والفيشاوي

خيط ذكريات لن يرحل

في الثلاثينيات من القرن الماضي..

كيف ظهرت مجمعات (الصرائف) في بغداد؟

د. حيدر عطية كاظم

استطيع أن أدعي، أن مقالاً صحفياً كتبته جريدة "الحاصد" في الثلاثينيات من القرن الماضي نجح في رسم أبعاد الحالة الاقتصادية المزرية التي كان يعيشها الفلاح وعائلته في ظل النظام الإقطاعي عندما قال ما نصه: "يعيش الفلاح مع أطفاله، الذين هم نصف عراة، معيشة ضنكة وهو لا يرتدي سوى العباءة الصوفية، في فصل الشتاء عندما يعود من المزرعة مساءً منهوك القوى، لاعناً الحياة التي حملته أثقالها المنهكة حاملاً على كتفه مسحاته، وهناك تحت خيمة ممزقة يتلاعب بها الهواء والصرصر ويدخل إليها رذاذ الأمطار من جميع جوانبها المفتوحة، جلس بضعة أطفال القرفصاء وبينهم أمهم المسكينة، فينظرون رب البيت الفلاح على طوى، يأتي هذا الفلاح إلى الخيمة وهو مكلوم القلب، فينهض الأطفال برغم البرد القارس ويطلبون كسرة خبز يطردون بها أفة الجوع التي استولت على بطونهم، وحينذاك تنهض الزوجة نهوض المريض من فراشه، فيتعاونان هي وزوجها على تهيئة الساج وعمل كمية قليلة من عجين طحين الذرة والدخن الأسود، فيضرمان النار من قاذورات الأبقار العائد لصاحب المزرعة، ويعملان من ذلك العجين الأسود خبزاً يتناولانه وأطفالهما بشهية زائدة".

لم يكن غريبا والحالة هذه، أن يدفع هذا الظلم والحيف، فلاحي العمارة لا إلى الهجرة فقط وإنما، برغبهم في المهن الحقيرة على الزراعة، الحقيقة التي أشار إليها سعد صالح متصرف (محافظ) العمارة في أحد التقارير الذي كتبها في سنة ١٩٤٤، إذ قال فيه ما نصه:

"الحق إن الحيف الذي يلحق فلاحي العمارة يحبب لهم الهجرة ويرغبهم في المهن الحقيرة في المدن على الزراعة، لأن إيراد تلك المهن على نزارته قد يؤمن احتياجاتهم، ولهذا تكاد لا تخلو مدينة من مدن العراق ولا عمل من أعمال الحكومة غير الفنية من عدد عديد من عشائر العمارة، فهم الجنود المتطوعون، وهم الشرطة، والعمال والخدم".

صفوة القول، إن إيصال الطبقة الإقطاعية بعض أبنائها إلى منصب الوزارة، وحصولها على نسبة يعتد بها في مجلس الأمة، وهيمنتها على بعض الأحزاب السياسية، في السنوات العشرين الأخيرة من عمر النظام الملكي، قد ساعد على إطلاق يدها في الريف، فراحت تفترس أبناءه بلا حد أدنى للأخلاق أو الرحمة، فأدخل ذلك اليأس والقنوط في نفوس الكثير من الفلاحين، فأطلق أحدهم قريحته ليعبر عن رغبة جامحة بالهروب إلى بغداد، خلاصا من تلك الحياة، عندما قال والألم يعصر قلبه ما نصه:

"أرد أشرد لبغداد من هالفلاحة

لا تشبع الجوعان ولا يبها راحة".

ومما يستحق الملاحظة هنا، أن أولئك الفلاحين الذين دفعهم الفقر المدقع إلى التخلي عن كبريائهم، كانوا قبل عقود قليلة يعتبرون أي عمل آخر مماثل غير حراثة الأرض كارثة وعارا ما بعده عار. وفي حالات كثيرة كان رجال العشائر، الذين أجبروا على العمل في بناء الطرق أيام الاحتلال البريطاني، يرفضون في نهاية العمل أن يأخذوا مالا أو أجرا، إذ كانوا يخشون، إذا ما فعلوا، أن يوضعوا في مستوى العمال الأجراء.

إلى جانب ذلك كانت هناك عوامل أخرى جاذبة للمدينة، أهمها تأسيس الجيش واستمرار قبول المتطوعين، وظهور الدوائر الأمنية، فضلاً عن تأثير البعض بدعوة أقربائهم وأصدقائهم الذين سبقوهم في الهجرة إلى المدن، وازدياد الحاجة إلى الأيدي العاملة في المدن، خاصة بعد تأسيس "مجلس الإعمار"، وشروعه ببناء العديد من المشاريع.

بدأت الهجرة على شكل أعداد قليلة متسللة من لوائي العمارة والكوت، وبعض الألوية الجنوبية. سكن أولئك المهاجرون، الذين أخذوا يعملون في المهن الوضيعة كحمّالي الخيول، في خانات منطقة الفضل، وببدل إيجار شهري قدره ٢٥ فلسا ومع مرور الأيام ازداد وصول الفارين من نار الإقطاعيين إلى مدينة بغداد، لدرجة أن الخانات لم تعد قادرة على استيعابهم، فأخذوا يبنون لهم "مساكن" خاصة بهم في الفراغات الموجودة بين بيوت بغداد وأحيائها والمساحات العامة ولما كان الفلاح المهاجر لا يعرف سوى الصرائف التي اعتاد عليها في حياته السابقة من جهة، وقلة تكاليف موادها من جهة أخرى، فضلاً عن سهولة فتحها وطيها ومن ثم حملها إذا اقتضى الأمر، وعليه فقد أقدم الفلاحون المهاجرون على بناء صرائفهم في بغداد التي لم تختلف عن مثيلاتها في الريف، خاصة في طريقة بنائها ومساحتها التي لم تتجاوز الثلاثين متراً مربعاً في أفضل الأحوال، مع خلوها من الأثاث تقريباً ما عدا صندوقاً يضم ملابسهم، ونادراً ما تحتوي الصرائف على سرير حتى وان كان من سعف النخيل للمنام.

لقد ظهرت أول مجموعة صرائف بالقرب من محطة قطار شرق بغداد، وبمرور الأيام ازدادت الصرائف في تلك المنطقة التي أصبحت تسمى بمحلة الخندق. كان المحظوظ من سكان تلك المنطقة هو من وجد فرصة عمل في أحد المعامل القريبة خاصة معامل السكائر.

كما أدى قبول الجيش للمتطوعين من الفلاحين في فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية إلى ظأياً كان الأمر، فإن "أحياء" الصرائف أخذت بالازدياد سنة بعد أخرى، فقد قدر عدد الصرائف في سنة ١٩٤٠ بثمانية آلاف صريفة تأوي قرابة ٤٠ ألف مهاجر.

أدى الاحتلال البريطاني الثاني للعراق سنة ١٩٤١، وتمركز القوات البريطانية في مدن العراق ومنها مدينة بغداد، إلى ظهور الحاجة الماسة للأيدي العاملة لإقامة معسكرات الجنود، وبناء الطرق، وكان ذلك بمثابة عامل مشجع للمظلومين من أبناء الريف بالهجرة إلى بغداد خاصة، فظهرت "أحياء" جديدة من الصرائف أهمها الشاكرية شمال قاعة الخلد بالكرخ التي تقدر مساحتها بـ٢٥كم٢ العائدة أصلاً لشاكر الوادي وزير الدفاع. ولما كان شلال المهاجرين مستمر فإن السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الثانية شهدت ظهور منطقة أخرى للصرائف في الوشاش شمال مدينة المنصور الحالية.

وفي الوقت نفسه (١٩٤٣) ظهرت واحدة من أهم أحياء الصرائف في مدينة بغداد ألا وهي منطقة "العاصمة" الواقعة شرق سدة ناظم باشا وتحديداً في المنطقة التي يشغلها مستشفى الجملة العصبية(حالياً) وجنوبه حتى بغداد الجديدة والتي تقدر مساحتها بـ١٥كم٢ وكان بناؤها العشوائي وغير المنظم لا يختلف عن بقية أحياء الصرائف الأخرى، وكان جل سكان هذه المنطقة هم من العاملين في معامل الطابوق الواقعة شرق تلك المنطقة في مكان ليس بعيداً عن قناة الجيش الحالية(.

ومما يجدر ذكره هنا، إن موظفي الدوائر الرسمية أطلقوا على منطقة العاصمة أسم "خلف السدة"، وكانت تتصل بالرصافة من ثلاث جهات رئيسية، جهة باب الشيخ، وجهة ساحة الطيران، فضلاً عن جهة القصر الأبيض. وغدت هذه المنطقة بعد اكتضاضها بالمهاجرين خلال سنوات الحرب العالمية الثانية وما تلاها محلات متلاصقة بعضها مع البعض، كل محلة سكنها أبناء عشيرة واحدة تقريبا لكن مع ذلك علينا أن نسجل هنا، أن أولئك المهاجرين ولدّن تحريرا نسبياً من بعض القيود العشائرية، فإنهم أقاموا علاقاتهم مع بعضهم ومع العشائر الأخرى على أساس النظم والتقاليد العشائرية.

إن الحديث عن صرائف منطقة "العاصمة" لا يتكمل إلا بالحديث عن "شطيط" (النزيزة) وهو عبارة عن نهير صغير لا يتجاوز عرضه المترين، كان يحاذي أسفل الجانب الشرقي من السدة مباشرة، ليمتد حتى مصب نهر ديالى، وكانت صرائف "العاصمة" واقعة على الضفة الشرقية لذلك النهير، الذي وجد أساساً لتخفيف الضغط على السدة في أوقات الفيضانات، وتحول مع مرور الأيام إلى نهر تصرف إليه المياه القليلة لأحياء باب الشيخ والبتاوين وبقية أحياء الرصافة، وكان عبارة عن مستنقع دائم للمياه الآسنة، وزاده سوءا اتخاذه بعض أبناء تلك الصرائف مرتعاً لجاموسهم. ولم نبالغ إذا ما قلنا إن البعض من أطفال تلك المنطقة اتخذه "مسبحاً".

إلى شمال منطقة "العاصمة" ظهر تجمع آخر وكبير للصرائف والذي عرف بمنطقة "الميزرة" الواقعة شرق مجزرة الشيخ معروف، وقد بلغت مساحة هذه المنطقة، التي تشغلها حاليا كراجات ساحة النهضة والتي كانت بالأساس مقابر للبهود، بحوالي ١٠كم٢.

عن رسالة (الموقف الرسمي والشعبي من سكان الاكواخ في بغداد)

الرصافي كما يصفه رفائيل بطي عام 1923

كتب رفائيل بطي:

ألمع جوهرة في تاج الأدب العصري، مُحيي الشعر الحزين بقريضه الممتاز، لو درس من العلوم الحديثة بقدر ما أوتي من الشاعرية، لما رأينا الشعر العربي على ما هو عليه الآن، وإن رجع إليه الفضل في إيصال شعرنا العصري إلى مرتبته الرفيعة الحاضرة.

وعندي أن أفضل ما يُنعت به الأستاذ الرصافي "الشاعر"، لو لا أنّ هذه الكلمة قد ابتذلتها الألسنة والأقلام، فألصقتها بكل من جمع اللفظة إلى أختها وربطها بوزن وقافية، فلنسمِّه "الشاعر العبقري"، ولا إخال أن في السوداء رجلا ينازعه هذا اللقب بحق، وإن نازعه إياه كثير منهم بالباطل.

عرفت هذا النابغة بشعره قبل أن عرفته بشخصه، فكنتُ أتخيله فتًى نحيفًا خفيف الحركة كثير الكلام، حتى أسعدني الحظ بلقياه ومرافقته زمنًا، فرأيتُ فيه البطل في هيكله ومهابته، كما عهدته خنذيذًا بين الشعراء.

يُحب الصراحة في الفكر والقول، والحرية في العمل، أبيٌّ مقدام لا يعرف التساهل في مواقف الإباء، ولا يستخذي لضيم أو يستنيم لحادثة، ثابت في مبدئه، ترى الانقباض باديًا على محياه شارة شممه وعزة نفسه.

هو أوّل شاعر جاء قومه العرب بما يُحبون، وصارحهم بما لا يُحبونّ، لم يعرف للتقليد أو الخضوع للبيئة معنًى، لا في صناعته ولا أفكاره، كان من شعره صيحاتٌ عملتْ على تقويض معالم الاستبداد الحميدي، كما أنّه ما لبث بعد إعادة الدستور العثماني واستبشاره به أن رجع يُنعي على القوم تخاذلهم لما شام فيهم الرجعية.

أقدس فيه صفة لو اتصف بها شعراء الشرق كلهم لما عجزوا عن أن يُرجعوا إلى مطلع الشمس روعته وإشراقه، وهو أنه يُحس ويشعر فيقول الشعر؛ لذلك تجيء أبياته وقصائده موجعة نظرًا إلى الحقيقة التي فيها.

هذا وإن ما طُبع ونُشر من نَظم الأستاذ الرصافي لا يدل على منزلته الفكرية، بل إنّ له قصائدَ ومقطوعات لم تُطبع وتُذع بعد، سيكون نصيبها الخلود في أدب الضاد لما حوته من المصارحة بالحقائق الاجتماعية المُرّة، مما لم يتعوده الشعر العربي قبله.

وقد رأيته في مواقف عديدة يترجم عن شعور أمته، ويَنظم لها في وصف حالتها شعرًا تتخاطفه الأسماع والخواطر، وتتناقله الألسنة فتتحدث به المجالس وتصفق لتلاوته، مع أنّ ما فيه يُدمي القلوب ويستنزف العَبرات.

يَنظم الأبيات في خلوته، ثم لا تلبثُ أن تراها ذائعة في البلد بعد يوم أو يومين، وهو الشاعر العربي الوحيد الذي يتناقل قوْمُه منظوماته ويتناسخونها قبل الطبع.

وإذا رأينا بعض الوزانين يتكلفون القول تكلفًا، لم نرَ كمعروف يترجم بشعره عما طُبع عليه من شيم، ولا سالت نفس شاعر بما سالت به نفس الرصافي الرقيقة الحساسة، على أسَنّات الألسنة التي تنشد أبياته.

امتاز الأستاذ الرصافي بثلاث خصال رفعته إلى هذا المقام:

أولاها: "شعره الحزين"؛ فهو الذي أحيا "التراجيديا" في أدبنا الحديث بهذا الشكل الرائع، وقد ساعده على الإبداع في المسلك حنانه المتناهي، ورقة عاطفته، تلك العاطفة المجسمة التي لا تعرف لها مستقرًا غير أبيات هذا الشاعر العبقري.

والخصلة الثانية: "نظمه الاجتماعي"؛ فقد عرفناه مفكرًا نشيطًا يدرس حياة المجتمع فيُدرك نقائصه، ويَحس نبضه، فيُشير إلى مواطن النقص والوهن في مُجتمعه، مشنِّعًا بالسيئات ما شاء تفننه، واصفًا للداء أنجع دواء؛ فهو الشاعر المصلح الذي يعمل بقصائده عمل الفيلسوف الاجتماعي في مقالاته وكتبه، ولقد أجمعت الصحافة العربية يوم اطلعت على ديوانه الأول على أنّ "ابن الرصافة" مبتكر طريقة النظم الاجتماعي، وفارس الميدان فيه.

أما الخصلة الثالثة التي تفضل قريضه كله فهي: "شعره القصصي أو الروائي"؛ فقد سبق شاعرنا في هذا الباب صاغة القوافي من مُعاصريه كلهم، وانفرد بينهم بهذا الأسلوب الفتان، وما حواه من الوصف الدقيق، والتعبير الرّقيق، وبراعة الدِّيباجة، واستفزاز الشعور، وتحريك العواطف، ولي غيرها من صفات الأدب السامي، ولا يدرك معنى هذا القول إلا من قرأ "أم اليتيم" و"اليتيم في العيد" و"المطلقة"، وأمثالها من بدائعه.

وُلد معروف الرصافي في بغداد سنة ١٢٩٢ هجرية، في أسرة مُتوسطة الحال، أمّا أبوه فمن عشيرة كردية تقطن في نواحي كركوك تُسمّى الجبارة، وتدّعي هذه العشيرة أنها علوية النسب، ويُسلم لها جميع أهالي كردستان بذلك، فإن صح ادعاؤها فهي عربية الأصل، وأمّا أمه فمن عشيرة الغراغول، وهم بطن من شمر القاطنين في سهول العراق.

درس المترجم مبادئ العلوم الابتدائية في كتاتيب بغداد ثم دخل المدرسة الرشدية العسكرية، وكانت هذه المدرسة الوحيدة يومذاك في مدينة السلام، فمكث فيها ثلاث سنوات ارتقى إلى الصف الثالث، وفي السنة الرابعة لم ينجح في امتحان الصف الرابع، فحمله ذلك على ترك المدرسة المذكورة، وأخذ بعد ذلك يختلف إلى المدارس العلمية في بغداد طلبًا للعلم؛ فدرس العلوم العربية وغيرها من سائر العلوم الإسلامية عند العلامة محمود شكري الألوسي الشهير،١ وغيره من علماء بغداد، غير أنّ تردده إلى الأستاذ المشار إليه كان أكثر؛ فقد لازم الدرس عنده زهاء اثنتي عشرة سنة، صار في أثنائها مُعلمًا في بعض المدارس الابتدائية الرسمية في مدينة المنصور، ليستعين في حياته المادية — بما يتقاضى من الرّاتب الزهيد فيها — على مواصلة طلب العلم، ثم فرغت وظيفة التدريس في قضاء مندلي من أعمال بغداد، فوضعتها الحكومة في المسابقة بالامتحان، وكان طالبو هذه الوظيفة أحد عشر رجلاً، بينهم الأستاذ الرصافي، الذي كان الفوز عليهم نصيبَه في الامتحان، فعُيّن مدرسًا للقضاء المذكور، غير أنه قبل استلامه زمام وظيفته رغّب إليه مدير المعارف في بغداد بإيعاز من واليها نامق باشا أن يتنازل عن التدريس في القضاء المذكور على أن يعتاض عنه بتدريس آداب اللغة العربية في المدرسة الإعدادية الرسمية في بغداد براتب لا يقل عن راتب التدريس في القضاء المذكور، فقبل ذلك وظل في عاصمة العراق يُدرّس العربية في المدرسة المذكورة إلى إعلان الدستور العثماني.

وقد أخذ الأستاذ الشاعر من أوّل نشأته يحفظ الشعر ويعالج النظم، وهو مَطبوع عليه، حتى أحرزت قصائده استحسانًا عظيمًا في أندية الأدب هنا وهناك، وتفاءل قرّاء شعره بنبوغه في الفن، وأمّلوا له مُستقبلاً كبيرًا في هذا الميدان، وكان ينظم القصائد الحماسية والاجتماعية، ويكشف بها سوءات الحكم، وسيف الاستبداد الحميدي مُصْلَت فوق الرِّقاب، وهو يبعثُ بقصائده هذه إلى مصر، وتُطبع هناك، وتعمل تأثيرها بانتشارها في الصحف والمجلات، وبالخاصة في مجلة المقتبس وجريدة المؤيد؛ مما أكسب صاحبها ذكرًا نابهًا في العالم العربي كله.

وقد قام يتغنّى بالحرية جهارًا بعد أن كان تغنّيه بها في الخفاء عُقيب أن أفاض الدستور على بلاد السلطنة العثمانية أنواره، وشرع يُنشد قصائده الأبكار في الحفلات الكبرى، ويُلقي الخطب الحسان في نهضة الأمة، وحثها على التقدّم والفلاح.

وفي هذه الأثناء طلب صاحب جريدة "إقدام" التركية الشهيرة إلى المترجم السفر إلى فروق للتحرير في جريدة عربية راقية باسم "الإقدام" تكون بجانب "إقدام" التركية، لكن المشار إليه عدل عن فكرة إصدار الجريدة العربية بعد أن وصل الأستاذ الرصافي القسطنطينية؛ فبقي هناك بضعة أشهر شهد في خلالها واقعة "٣١ مارت" الشهيرة، وذهب في هذه الأثناء إلى سلانيك للنزهة، وبقي فيها شهرًا، ثم قفل راجعًا إلى إستانبول، وعاد منها إلى محطة بغداد، وفي رجوعه أحوجته الدراهم لنفقات السفر وهو في بيروت؛ فباتع محمد جمال صاحب المكتبة الأهلية فيها مجموعة قصائده، التي جمعها العالم الفاضل المرحوم محيي الدين الخياط في ديوان أصدرته المكتبة المذكورة باسم "ديوان الرصافي"، كان له حجة كبرى في عالم الأدب، وكتبت عنه الصحف والمجلات وكبار الأدباء الفصول الضافية، نخص منها بالذكر مقالة بديعة في "الشعر العربي والرصافي"، للأديب الكبير الأستاذ عبد القادر المغربي، ومقالة ثانية ممتعة كتبها البحاثة المفضال الأب لويس شيخو اليسوعي، في مجلة "المشرق" البيروتية، إلى غيرهما مما أثبت في الجزء الثاني من ديوانه.

وبعد أن عاد الأستاذ الشاعر إلى بغداد بشهر، وردته برقية من أصحابه في الأستانة، تنبئ بتعيينه مُدرسًا للغة العربية في المدرسة الملكية العالية، والتحرير في جريدة عربية باسم "سبيل الرشاد"، تصدر هناك لمديرها المسئول عبيد الله مبعوث أيدين، فوصل إلى دار الخلافة، واستلم وظيفته وظل يُحرّر في تلك الجريدة نحو سنة، وكان يُدرّس كذلك الآداب العربية في مدرسة الواعظين التابعة لوزارة الأوقاف، وقد طبعت مُحاضرات المترجم التي ألقاها في هذه المدرسة عن الخطابة عند العرب في كتاب صدر في فروق بعنوان: "نفح الطيب في الخطابة والخُطيب"، كما أنّ مجلة "المنتدى الأدبي" نشرت شيئًا من محاضراته في الأدب والشعر.

وانتُخب أخيرًا مبعوثًا عن المنتفق في المجلس النيابي العثماني، حتى جاءت الحرب العُظمى، وقد تزوّج في الأستانة، ولم يعقب له ولد، وأقام مدة إقامته في العاصمة العُثمانية اللغة التركية التي تعلم مبادئها في مسقط رأسه، ورجع الأستاذ الرصافي بعد الهدنة إلى الشام، في عهد حكومتها العربية، فلم تُسند إليه منصبًا يليق بمقامه العلمي والأدبي، لما عُرف به من الإباء والترفع عن التذلل لمن بأيديهم الحَل والعَقد، وبعد أن قضى هذا الأديب الكبير في دمشق مُدّة عانى فيها ألم الحاجة، في حين كانت السلطة هناك تغرق على أعوانها الذهب الإبريز من غير حساب، استدعي من القدس الشريف لتعليم الآداب العربية في دار المعلمين فيها، بإشارة أحد أصحابه الفضلاء هناك؛ فغادر الشام إلى أورشليم، وعاش في منصبه الجديد عيشة رضية.

وقد أقامت له الكلية الإنكليزية حفلة تكريمية شائقة اشترك فيها كبار أدباء فلسطين كلهم، وأطنبت الجرائد في وصفها إطنابًا دل على تقدير القوم لنابغنا، وبعد أن تألفت الحكومة الوطنية المؤقتة في العراق سنة ١٩٢١، طلب إلى الأستاذ الرصافي أن يقدم إلى موطنه العراق لحاجة البلاد إلى رجالها المفكرين؛ فغادر القدس مشيّعًا بتكريم واحترام، وقد عُين بعد قدومه إلى العراق نائبًا لرئيس لجنة الترجمة والتعريب في وزارة المعارف، وهو المنصب الذي يشغله حتى كتابة هذه السطور.

•••

عن كتاب (الادب العصري في العراق العربي) الصادر في القاهرة سنة ١٩٢٣ ـ الجزء الاول.

بين مقهى الزهاوي والفيشاوي خيط ذكريات لن يرحل

أحمد فاضل

كانت المقاهي ولا تزال تشكل اقامة شبه جبرية للأدباء والشعراء والفنانين، وجمهرة كبيرة من متذوقي الغناء والموسيقى، ففي دراسة ليورغن هابرماس الفيلسوف وعالم الاجتماع الألماني المعاصر ‹› التحولات البنيوية في الفضاء العام ‹› الصادرة عام ١٩٦٢ محاولة لتذكير المجتمعات المعاصرة بإرثها الثقافي الذي أدى إلى تطورها لاحقاً. في جوهر ذلك الإرث تقع رؤية ثورية تخيلت الأمكنة العامة فضاءات تستوعب تجمعات لمواطنين وأفراد يمارسون النقد والحوار ضد كل أشكال السلطة والمؤسسات، وقد خلق هذا النوع من الالتقاء تحولا في قواعد وآليات التجمع والاتصال بين الأفراد، وهو فعل ثقافي يؤدي إلى تغيرات في الحساسية الثقافية والإبداعية وفي خصائص التعبير عن الذات و الجماعة، والمقهى عند هابرماس هو الذي شكل الرمز الذي عبر عن تلك التحولات وهو المكان الذي كان فضاء لإنجازها وممارستها، وإذا كان المؤرخ الثقافي الألماني ولفغانغ شيفلبوس يرد الأثر الثقافي والتحولات الاجتماعية إلى مشروب القهوة، فإن هابرماس يرى أن ذلك يعود إلى خصائص المكان الذي أنتجته القهوة وهو المقهى، أي التطورات، فالمقهى المكان، لا القهوة المادة، هو العنصر الذي لعب دوراً حاسماً في إنتاج الثقافة الحديثة.. وقد عرفت بغداد كما سائر المدن العربية اسماء لامعة لمقاهي خلدها الزمان اشهرها مقهى " الزهاوي " التي تطل على ساحة مهمة من ساحات بغداد هي الميدان، اكتسب هذا المقهى شهرته من الشاعر والفيلسوف العراقي المعروف جميل صدقي الزهاوي (١٨٦٣ - ١٩٣٦)، وقبل ان نرجع بذاكرتنا الى عقد العشرينات وثلاثينيات القرن المنصرم لنجلس مع شاعرنا الزهاوي الكبير في علمه وأدبه وشعره، البسيط في مأكله ومشربه وهندامه، المتواضع بين الناس، الراكب دابته الشهيرة لتوصله يوميا الى داره، نعرج الى ما تحدث به فنان الزبائنية الراحل فخري الزبيدي في كتابه " بغداد أيام زمان" يقول: الى أن جغالة زادة سنان باشا أمر بفتح أول مقهى في بغداد سنة ١٥٨٦، ومن أولى مقاهي بغداد العريقة بعد الإحتلال البريطاني للعراق عام ١٩١٧ مقهى الخافقين، و مقهى الشط، و قهوة القلعة، و قهوة البلابل، حتى قامت بعد ذلك مقاهي استقرت في الباب الشرقي، وفي شارع الرشيد بداية من ساحة الميدان وحتى نهايته. كنت متخوفا من الدخول الى مقهى الزهاوي في سبعينيات القرن المنصرم لسببين أولهما ان عمري لايسمح بمخالطة من هم اكبر عمرا وتجربة مني، وثانيهما أنني لايمكن أن أفهم أو أجاري تلك النقاشات التي كانت تدور بين مختلف المثقفين، وأخرون على دراية كبيرة بهذه السجالات وانتظرت حتى إذا ما غزا شعري بياض الثلج واستنار عقلي بتلكم الثقافات التي كنت متخوف يوما منها، خطوت اليها لأرى من بقي من ذلك التاريخ وكم صدمت حينما لم أجد أحدا يناقش كاتبا أو شاعرا أو فنانا، ووجدتني وحيدا إلا من بعض المتقاعدين الذين راحوا يتقاذفون بالقوانين أيها أنسب لهم وهل هناك زيادة كما وعدت الحكومة بذلك" ورأيت وجوها غير التي رأيتها قبل عقود من السنين، وجوه متعبة، حائرة، تنفث سم دخان السيكارة والأركيلة فتتوه في عالم آخر غير الذي تعيشه، تبحث عن شيئ ربما عن أمل يزيح الهموم عن صدورها، بينما أنا أبحث عن الزهاوي والرصافي وطاعون والكبنجي والسياب والجواهري وأحمد الصافي النجفي فلم أجدهم إلا على جدار المقهى الذي احتفظ بصورهم وكأنهم ينظرون الي بعيون دامعة متحسرين على تلك الأيام التي مضت ولايمكن لها ان تعود. هذه الصور ذكرتني بما كتبه الروائي المصري الكبير يوسف القعيد قبل أيام عن مقهى آخر يشبه الى حد ما مقهى الزهاوي هو مقهى الفيشاوي وكان هناك حبل سري يربط بينهما، إلا أنهما يختلفان من حيث الزمان والمكان، لكنهما يجتمعان تحت سقف واحد هو هذا الحب الكبير للثقافة التي مكانها الوسط الجماهيري الشعبي، القعيد كان ولا يزال يعتبر نفسه انه خرج من معطف محفوظ فهو قد لازمه سنوات طويلة، فلا عجب ان يكون لهذا المقهى حكايات ترتبط بصاحب نوبل، مع انه يقول عن مقاهي القاهرة أن بعضها لم يعد له وجود، لم يبق منه سوى ذكراه، لكن البعض منها ما زال موجودا حتى الآن، وقد كانت قصة الانتقال من مقهى الى مقهى " حدوتة " لا أحب أن تأخذني مما أريد كتابته الآن بحسب قوله. مقهى الفيشاوي مازال قائما.. وهو المقهى الذي كان يجلس عليه نجيب محفوظ في الفترة التي عمل فيها موظفا في وزارة الأوقاف، ثم موظفا في مؤسسة القرض الحسن بنفس الوزارة، كان يتسلل من مكتبه خلال أوقات العمل ويجلس على الفيشاوي.. يدخن الشيشة ويلمح حذاءه ويقرأ.. كان يعرف الفيشاوي معرفة شخصية، كان المقهى عبارة عن صالونات مغلقة للعائلات وصالون كبير في المدخل وطرقة طويلة بين هذه الصالونات، وكانت الصالونات مخصصة للعائلات، وكانت تفصلها عن بعضها بعضا ستائر من الكريستال، لم ينقطع نجيب محفوظ عن الفيشاوي بعد ذلك، وظل يتردد عليه بمفرده، ومن المؤكد أنه وجد في من يجلسون على المقهى قصصا وحكايات كتبها، بل إن المقهى يظهر في بعض أعماله بنفس اسمه. توقف اللقاء بعد أن اشتدت أزمة التاكسي في القاهرة وأصبح العثور على التاكسي مثل المعجزات، واخترع المصريون بخفة ظلهم المعروفة حيلة للعثور على تاكسي أن يحمل المواطن منهم غترة خليجية يضعها في جيبه وما أن يأتي تاكسي حتى يضعها فوق رأسه فيتوقف له التاكسي ولا أعرف إن كان يخلعها بعد أن يستقل التاكسي أو أن يستمر في تمثيل دور الضيف الخليجي حتى يتوقف له التاكسي، التاكسي تسببت في عدم حضور نجيب محفوظ من العجوزة إلى سيدنا الحسين، فالرجل لم يكن يمتلك سيارة وظل هكذا حتى آخر يوم في حياته.

وأذكر بعد الخامس من يونيو سنة ١٩٦٧ أن كتب نزار قباني قصيدتين مهمتين في نقد الوضع العربي الراهن وفي المقدمة منه مصر. وأن القصيدتين صودرتا في مصر. وقد أحضرهما أمل دنقل وقرأهما بصوت عالٍ واستمعنا إليهما وكان جزءًا كبيرًا من المناقشات التيّ تدور في هذه الجلسات في ذلك الوقت مما يمكن أن يضايق الحكم فأغلق المقهى أبوابه يوم الجمعة ولا أعتقد أن السبب في ذلك هو أزمة العمال، كلمات القعيد ذكرتني بفترة عصيبة مرت على مقهى الزهاوي حينما أراد ورثته بيعه فثارت ثائرة الناس من كتاب وشعراء ومحبين لهذا الصرح التراثي البغدادي حتى اضطرت أمانة بغداد من شرائه وقامت على تجديده بالصورة التي هو عليها الآن، ترى ماذا يمنع أن تعود اليه تلك السجالات والمطارحات الأدبية مع انه قريب من شارع المتنبي وسوقه الذي يشهد كل يوم جمعة تظاهرات ثقافية ترعاها مؤسسة المدى للثقافة والفنون على قاعتها وبيت الشعر الذي يبعد خطوات عنها، هذا الشارع الذي لم تتعرض للنسيان وجوه ألفناها لأدباء وشعراء وفنانون ومتذوقون لكل تلك الثقافات.

الرحالة البريطاني جاكسون عام 1797.. بين البصرة وبغداد

حكيم عنكر

تلقي الرحلة التي قام بها الرحالة البريطاني جون جاكسون إلى العراق، ضمن مسار طويل لرحلة أشمل انطلقت من بومباي في الهند إلى إسطنبول،عام ١٧٩٧، الضوء على الوضع العام الذي كان يعيش فيه العراق، في تلك الفترة الزمنية، التي وإن كانت فيها بغداد تحت الحكم العثماني، فإن الأوضاع الداخلية لهذا البلد الكبير اتسمت بالفوضى والتفكك، وعدم الأمان، إضافة إلى سيادة الحكم العشائري وخفوت صوت السلطة العثمانية كلما جرى الابتعاد عن بغداد.

وقد غامر البريطاني جاكسون بحياته، عندما نزل في ميناء البصرة، واختار أن يعبر إلى إسطنبول عبر الملاحة النهرية وبرا، وربما لم يكن يقدر المشكلات التي ستواجهه في مغامرته تلك، لكنه كما يقول نفسه، فإن تلك الرحلة كانت لتستحق كل تلك التضحيات، لأنها عرفته على تفاصيل حياة العراقيين ومعيشهم وتحديهم للسلط المختلفة، واصطفافهم إلى جانب السلطة الوحيدة التي تؤمن حياة الفرد، وهي سلطة العشيرة ونفوذ القبيلة.

لقد كان بإمكانه أن يختار الطريق الآمن، بالمرور عبر الرجاء الصالح، في القرن الأفريقي، لكنه كان يعتقد أن ذلك الطريق طويل جدا، رغم ضمانات الأمن، كما أنه ساورته قناعة، أن أسرع الطرق للسفر من الهند إلى أوروبا هي أن يتجه بحرا إلى البصرة، ثم يقطع الصحراء الكبرى إلى حلب، ومن هناك، يذهب إلى إسطنبول، ثم يصحب البريد الألماني إلى فيينا فهامبرغ، فهذا الطريق سهل وأقل نفقة من طريق بغداد، ولكن الطريق الأخير أسهل، وقت الضرورة، ما دام العرب مجبرين أن يقطعوا الصحراء على ظهور الجمال.

سيصل جاكسون على ظهر سفينة بريطانية من بومباي إلى البصرة، وقبلها سيعيش حالة من الذعر هو وصحبه، عندما يعترضهم القراصنة العرب، أثناء مرورهم من الجزر القريبة في الخليج العربي، لكنهم سيفلتون، بفضل استعانتهم بخدمات عدد من القراصنة وأسياد الجزر الذين يتحكمون في الملاحة هناك.

يعتقد جاكسون أنه من جزيرة هرمز أو قشم، وغيرها من الجزر التي تمكن السطو بكل سهولة على السفن الداخلة إلى الخليج، لا يحتاج الأمر إلا إلا مباغتة، وهذا ما كان يتقنه القراصنة العرب، وهم في مراكبهم الصغيرة، مما يعطي نظرة واضحة عن حركة الملاحة في تلك الفترة الزمنية من نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، أما اليوم، فإن الإبحار في مضيق هرمز والخليج العربي أصبح مثل السير في طريق سريع مكتظ بالسفن والناقلات.

قبل الوصول إلى البصرة التي كانت بالنسبة إلى جاكسون مكانا مدهشا، حيث التقاء البحر بالنهر، والتمدد اللانهائي للصحراء، وصل إلى جزيرة "كرك" أو خرج، يقول "إن الغريب عن هذه البلاد لا يستطيع أن يكون له أية فكرة عن حرارة الصحراء إلا إذا كان على الشاطئ، وفي وسط النهر وفي مثل هذا الوقت من الصيف، ذلك أن أقدام المواطن الأوروبي سرعان ما تلتهب، حتى وإن كان ينتعل أقوى حذاء لديه".

في البصرة، سيجد جاكسون أمامه مدينة كبيرة ومأهولة، وفيها أخلاط من البشر، بالإضافة إلى حضور بريطاني قوي، لم يترك للفرنسيين والهولنديين أي فرصة للوجود في البلاد. وكانت جهود الفرنسيين، على وجه الخصوص، تذهب سدى، في ترسيخ وجود لهم في العراق، واقتصر وجودهم على بعض المغامرين، بعد أن خسر نابليون معركته الكبرى في مصر وحوض المتوسط على يد البريطانيين.

يكتب جاكسون عن المدينة "أكثرية السكان من العرب وأما البقية الباقية فإنهم من الأتراك والأرمن، ومعظم الأتراك من الرجال العاملين في الجيش أو في المناصب الحكومية الأخرى، أما الأرمن فإنهم يشتغلون في التجارة وبعضهم محترمون جدا!! ولهم تجارة ملموسة مع شرقي الأندنيز والبنغال بصفة رئيسة.

وتستخدم هذه التجارة عدة سفن لا تتجاوز حمولة أكبرها عن أربعمائة طن وذلك بسبب الصعوبة في اجتياز الحواجز. والمعتاد أن تحظى السفن المسافرة من بومباي أو البنغال بحمولات كاملة يتألف الجزء الأكبر منها من طبقات نحاسية وأدوية من مختلف الأنواع، أما سفن بومباي فإنها على العموم تحمل الفواكه الجافة.

على أنه من النادر أن تبحر أية باخرة إلى أي جزء من بقاع الهند دون أن تحمل معها عددا ملموسا من الجياد العربية، وهناك أمثلة عديدة على السفن التي تنقل الفضة والسبائك بمبالغ تقرب من آلاف الروبيات، وهذه النقود تتألف بصفة رئيسية من دولارات إسبانية وجنيهات فينيسية، والجزء الأعظم من هذه المتاجرة بهذا النوع من المواد في الإمبراطورية التركية يتركز في أيدي الأرمن، الذين ما إن يتوفر لديهم مبلغ حتى يسارعوا، بقصد الحيلولة دون وضع الأتراك أيديهم عليه، إلى تصديره إلى الهند، حيث يحصلون على فوائد لا تقل في الغالب عن اثنتي عشرة في المائة".

البصرة متسامحة

يقف جاكسون على جوانب أخرى مهمة في مدينة البصرة، فقد ساعد هذا التنوع البشري على نشوء نوع من الجوار المسالم، والذي أفضى إلى سيادة تسامح امتد حتى إلى الجوانب الدينية، وهو أمر قليل الحدوث بالنظر إلى أن الأجانب كانوا يتعرضون إلى مختلف أنواع المضايقات.

يكتب "تبدو شوارع المدينة ضيقة جدا، وهي لا تسمح إلا بمرور حصان واحد في وقت واحد. يضاف إلى هذا أن أجزاء كثيرة من هذه الطرقات غير معبدة، مما يصعب حتى على الخيول المرور فيها.

توجد في المدينة كنيسة كاثوليكية رومانية جيدة البناء، والناس في هذه المنطقة أقل تحرشا بالأجانب من غيرهم. وكل شخص هنا يرتدي الملابس البلدية، وهم يعنون بتربية شواربهم بصفة خاصة. ولقد التقيت هنا أحد الأرمن الشمهورين المدعو جوزيف أمين، الذي أمضى عدة سنوات في إنكلترا ونشر فيما بعد، باللغة الإنكليزية، كتبا عن رحلاته ومغامراته كتبها هو بنفسه".

الإبحار في دجلة

سيبحر جاكسون في نهر دجلة مع مرافقيه متوجها إلى بغداد، وبقدر ما إن الرحلة مشوقة إلا أنها حابلة بالأخطار، ذلك أن القبائل والعشائر التي تقيم على ضفتي النهر غالبا ما تترصد المراكب المبحرة، وتعمل على سلبها، بل وقتل من فيها في أحيان كثيرة.

لقد قال جاكسون في معرض رحلته إن ماء دجلة من أعذب ما شرب في حياته، وإنه لما تذوقه استغنى تماما عن الخمر، بل إن ماء هذا النهر أعذب من كل خمور الدنيا، واعترف أن مذاق ذلك الماء ظل عالقا في حنجرته إلى الأبد.

يقول في واحدة من مشاهداته "في الساعة الواحدة وصلنا إلى القرنة، ملتقى نهر دجلة والفرات، وقد مكثنا هنا ساعتين ولاحظنا أن دجلة كان يقع في الناحية الشرقية وأن الفرات كان في الجهة الغربية منا. كانت إحدى السفن الحربية تمخر على مقربة من الوسط بين النهرين، وهي سفينة حراسة تقوم بمطاردة السفن الأخرى التي تتهرب من دفع الرسوم المترتبة عليها ومنعها من المرور. فالنهران باتحادهما هنا معا يؤلفان مجرى مائيا هائلا عذبا.

ويطلق السكان على هذا المجرى من هذا المكان حتى الخليج العربي اسم "شط العرب". ولم يعد للمد أدنى تأثير على المياه في القرنة إلا في الأيام التي يكون فيها القمر بدرا أو محاقا، وحتى في تلك الأيام، لا ترتفع المياه إلا قليلا، أما التيار فلن يتحول".

حظوة الإنكليز في بغداد

للإنكليز في العراق حظوة خاصة، ويعاملون بنوع من التقدير، فلما يحصل عليه باقي الجنسيات الأخرى، وهو امتياز كان في صالح الإنكليز القادمين إلى العراق في تلك الفترة، ويعفيهم من عدد من المساءلات والإجراءات الإدارية الطويلة.

يكتب جاكسون "إن الإنكليزي يتمتع في بغداد بامتياز لا يتمتع به أحد غيره من رعايا الأمم الأخرى. فهو مهما كان يحمل معه من متاع وبدلا من أن يقتاد إلى دائرة الجمرك، يسمح له بأن ينقل متاعه إلى المكان الذي سيقيم فيه، وإذ ذاك يرسل أحد ضباط الجمرك لفحص متاعه هناك.

يؤكد جاكسون أن بغداد من أفضل المدن في المنطقة، لكنه يعيب عليها أنها لا تتوفر على سبل مريحة للعيش، فهي كما يقول شوارعها ضيقة ومترية، والناس ينامون مبكرا، كما أنها غير مضاءة، وتصول فيها العقارب وتجول الحشرات القارصة والخنافس، وقد كان يقتل كل ليلة أكثر من أربع عقارب لسعاتها مميتة.

ينقل جاكسون عن حر الصيف في بغداد "وفي هذا الفصل من السنة ينام جميع الناس على سطوح المنازل، وكنت أستمتع دوما وأنا أشاهد الناس يهبطون من السطوح عند شروق الشمس وهم يحملون أفرشتهم بأيديهم، لأنه ما إن تصعد الشمس في الأفق حتى يغدو الجو حارا بشكل لا يطاق. ولقد علمت فيما بعد أن مجرد التطلع من وراء الجدار القائم على السطح، يعتبر مسلكا محفوفا بالخطر، ذلك لأن الأتراك لا يترددون لحظة واحدة في إطلاق النار على أي شخص يكتشفون أنه كان يتطلع إلى منازلهم".

نص نادر

من صور بغداد في 1933

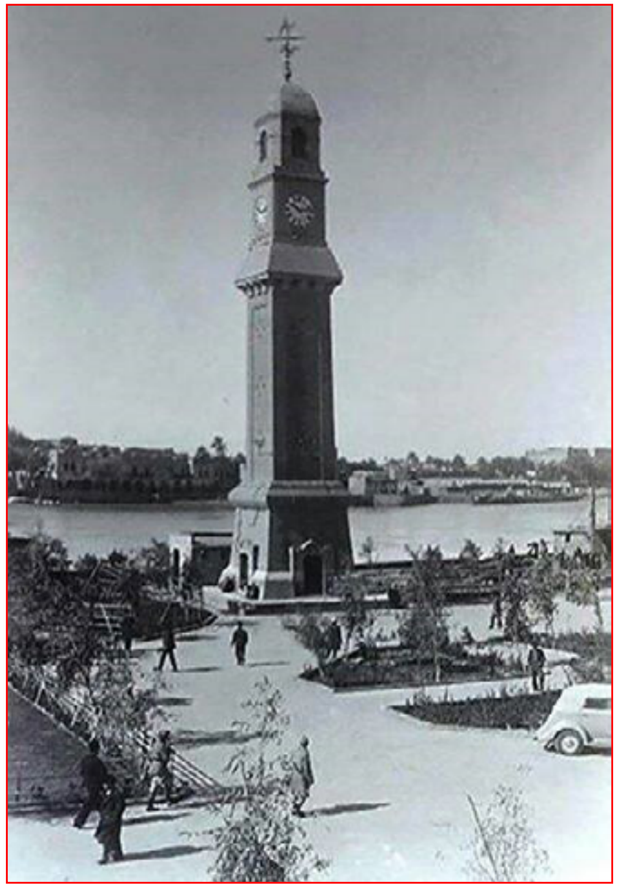

احمد حسن الزيات

كان ألذ ما أتذوقه من جمال بغداد وقفة في حديقة النادي العسكري كل صباح!! فكنت تراني أحرص عليها حرص العابد المتحنث على أداء صلاته، أو العاشق المتوجد على لقاء فتاته، كنت أغشى كل يوم هذا المجتلى الساحر، في رونق الضحى أو في متوع النهار، فأجد الشمس قد لألأت ذوائب النخل وغوارب النهر، وأخذت ترشق بأشعتها الظلال الندية من خلال الشجر، وبنات الهديل يبحثن كعادتهن في عساليج التين وأغصان التوت بأرجلهن ومناقيرهن، وهن يرجعن على التعاقب الحان الخريف؛ والحديقة مطلولة النبات منضورة الزهر تتنفس بالغاغية تنفس الطفل الحالم، والسكون مرهوب الجلال أنيس الوحشة يعمق ثم يعمق حتى تكاد تسمع النبات وهو ينبت؛ والنادي خلواً من أهله فلا تجد الا بستانياً يعمل في صمت، وغلاماً يكنس في هدوء، وطفلين جميلين يجيئان أحيانا فيجلسان في الشرفة أو يمشيان في الحديقة، فلولا نشوز خادمهما الكهل، ومنظر هندامه الزري الشكل، لحسبتهما زهرتين من زهورها، أو عصفورين بين طيورها!؛ فأسير في الروضة متئد الخطى مرسل النفس مرهف الحس، تارة بين مماشيها، وتارة فوق حواشيها، فأقف عند كل شجرة، وأحيي كل زهرة، وأسأل النبتة الوليدة بالأمس ما حظها اليوم من سر الحياة ونعمة الوجود! ثم أصعد درجة إلى الشرفة، وأنعم ساعة بتلك الوقفة، فأتنسم هواء النهر ملء رئتي، وأخذ جملة المنظر بمجامع عيني!؛ وأي منظر يسحر اللب ويملك الطرف كهذا المنظر الفاتن؟! الحديقة من ورائي تضوع بالنسيم الأريج وترق بالرواء البهيج وتروع بالسكون المهيم! ودجلة الخالد من أمامي تتجاوب أصداء الأمم خافتة في لجاجه، وتتهادى خفاف القوارب راقصة بين أمواجه، وأنا بين الشجر والماء كالطائر بين الأرض والسماء، يسبح خاطري في أجواء الماضي القريب والبعيد صاعداً إلى فكرة، أو هابطا على ذكَره، أو حائماً حول منظر كهذا المنظر تدفق به قلب في قلب، وامتزجت فيه نفس بنفس، وتجمعت الأحلام والأماني كلها فوق رقعة صغيرة من أرضه، وتحت سرحة فينانة من روضه!

لا تظنّن هذه الحديقة فيحاء قد تأنّقت فيها يد الطبيعة وتألق بها ف الإنسان؛ إنما هي مربع من الأرض على قدر ما يتسع له فناء كبير في منزل فخم، يشقها ممشيان معروشان قد تعارضا على شكل صليب قسمّاها إلى أربعة أقسام سواء، وفي هذه الأقسام وما ألحق بها قام دوح السدر، وبسق سرح الكافور، وانتظمت على جوانب مماشيها أشجار النارنج، وانتثرت على معظم أرضها ألوان قليلة من النُّور الجميل والنور العطر. فسماؤها كما ترى للشجر وأرضها للدهر وجوها للعطر وهي كلها لنوع من الجاذبية يجعلها على بساطتها فتنة الفنان وجنة المفكر!

ليت شعري ما مصدر هذا السحر الذي يشع في عيني ويشيع في نفسي كلما دخلت هذا المكان؟ أهو ذاك البناء المتآكل الذي يقوم في جنوبيه كأنه المعقل البالي أو الدير المهجور، أم هو ذلك النهر الجميل الذي يجري في غربيه كأنه الزمن الدافق أو الكتاب المنشور، أم هو ذلك المزيج العجيب من جلال القدم في المكان وجمال الطبيعة في البستان وعظمة الحياة الماثلة في النهر؟؟

ليس للروح العسكري في هذا المكان الشعري مظهر ولا أثر. فما تعهده من الخشونة في الكتمان، والعنف في الحركات والقسوة في النظرات والكلمات، يحول هنا إلى ذوق فنان ورقة شاعر وهدوء فيلسوف!

كادت هذه الخواطر الجريئة الملحة تذهلني عن حديقتي واليوم عيد من أعياد الطبيعة برزت فيه عارية من الحلل غانية عن الحلي! والخريف في العراق هو الربيع احترقت غلائله الوردية في لظى يوليو!؛ فهو على تجرد أرضه من الأنوار والأزهار، وتحجّب سمائه أحيانا بالغيم وأحيانا بالغبار، جميل البسمات عليل النسمات رفاف الأديم. فيا نحن أولاء بين أعقاب الخريف وطلائع الشتاء والشمس لا تزال في ثغر السماء ابتسامة حلوة؛ تضاحك النهر الحبيب فتزيده طلاقة. وتداعب الزهر الكئيب فتكسبه أناقة، وتطالع الجو المقرور فتقبسه حرارة، وتصارع برد الموت في أوراق النارنج وأطراف التوت فتطيل بقاءها فترة أخرى من الزمن! وهذه اليمامات السواجع، مازلن يأوين إلى أعالي الشجر يمرحن في الضوء ويتعمن بالدفء ويهتفن بالأهازيج كأنهن في أمَنَة من حلول يناير وهو منهن على ليال قلائل!! وهذا دجلة السعيد يتنفس موجه بالنعيم، ويطفح غرينه بالذهب، ويقذف تياره بالغثاء والزبد، بعد ما بخره القيظ فنش حتى انكشف ضميره، وانقطع خريره، وكاد يزحف الشبوط والزورق فيه على القاع! فالبواخر تصعد صافرات في سرعة، والأطواف تنحدر صامتات في بطئ، والقفف تعبر موقرات في هوادة، وقوارب الصيادين وزوارق الملاحين تتعارض وتتحادى في عباب النهر كأنها الخواطر الحائرة في الفكر العميق، والطيور الصائدة تحوم على وجوه الماء بأجنحتها الشهب حومان الآمال على ستر الغيب الصفيق، والبجعة الملكية تطعن في صدور الموج بمناقرها الطويل العريض وهي تسبح آمنة في حمى البيت العتيق، وأنفاس دجلة اللاهث من عبء القرون تتصاعد إلي حاملة أنين الأمواج وخفق المجاديف وغماغم الكرخ فتختلط بتجاوب اليمام على الشجر، وتتناوح الرياح بين الغصون، وحشرجة الاوراق الذاوية على الارض، فتتآلف من هذه الأصوات الخافتة موسيقى روحية شجية تبعث رواقد الأحلام وتثير كوامن الآلام وتقطع بين النفس وبين وجودها الحاضر!!

أيه يا دجلة يا سجل الأمم وراوية العصور! لشد ما فنيت في خريرك ضحكات، وامتزجت بنميرك دموع، وخفيت في ضميرك أسرار!! لقد رأيتك بالأمس ضارعا قد لصق خدك بالأرض حتى همّ بخوضك الخائض، وهمدت حياتك حتى أوشك أن يسكن عرقها النابض، ثم رأيتك اليوم وقد غاثك الغيث فجاشت ينابيعك الثرة بالنماء والثراء والقوة، ثم أقبلت كدأبك منذ آلاف السنين داوي الدارات صخاب اللج تعرضها مُلحا على بنيك فيعرضون عنك إعراض البطر، ويؤثرون على فيضك الميمون ونق المطر، ثم يهينون كبرياءك يا أبا الحضارات فيجعلون مبلغ همك حمل الأرماث ونقل القُفف! فهل يعجبون إذا فار غضبك فجرفت السدود وجاوزت الحدود وأصبتهم بالغرق؟.....

مجلة الرسالة (القاهرة) في ١ - تشرين الثاني - ١٩٣٣

محاولات إغتيال فاشلة في عهد الانقلاب الاول

رياض فخري البياتي

بعد انقلاب ٢٩ تشرين الأول ١٩٣٦م، اصبح بكر صدقي رجل الدولة الأول الذي خضع لإرادته جميع المسؤولين بما فيهم الملك غازي، واخذ رجال السياسية يتهافتون عليه في مقره، في محاولة لكسب وده، وقد كان ينتهز مثل تلك الفرص ليوضح سياسة حكومة الانقلاب الداخلية والخارجية، فيما اصبح رئيس الحكومة حكمت سليمان تابعاً له في حين أنكمش الملك غازي على نفسه في البلاط.

مارس بكر صدقي سياسة داخلية اتسمت بالعنف ضد الساسة والشخصيات المهمة التي عدها خصوماً يخشاهم، او يمكن ان يشكلوا خطراً على مستقبله السياسي، ولاسيما الذين عدهم اتباعاً لياسين الهاشمي وحكومته، فقام بمصادرة الحريات ومطاردة الوطنيين حتى شملت رؤساء العشائر و الوجوه الاجتماعية المتنفذة، والتي يمكن تناولها كالآتي:

أ- اتجهت أنظار بكر صدقي الى تصفية محمد يونس السبعاوي، أحد أنصار الكتلة القومية العربية، من اتباع ياسين الهاشمي، اذ كان يونس السبعاوي أحد أعضاء حزب الإخاء الوطني(٤) الذي تزعمه ياسين الهاشمي، وترأس تحرير جريدة (الإخاء العربي)، وقد كان يمتلك ثقافة عالية في المجالات السياسية والاجتماعية أهلته للعمل في تحرير العديد من الصحف اليومية، وانتخب نائباً في المجلس النيابي قبل شهر من حدوث انقلاب ٢٩ تشرين الأول ١٩٣٦م بقيادة بكر صدقي.

اتخذ يونس السبعاوي موقفاً معادياً من انقلاب بكر صدقي، تمثل ذلك الموقف بعقد الاجتماعات وربط الحلقات بين ضباط الكتلة القومية، وعدد من السياسيين بقصد التعاون للقيام بعمل يستهدف مواجهة حكومة حكمت سليمان، وقيام معارضة قومية بمساندة قوات الجيش.

وبطبيعة الحال لم تكن السلطات الحكومية غافلة عن نشاطات يونس السبعاوي المعادية لحكومة الانقلاب، ولاسيما أن الحكومة تعلم بعلاقاته الوثيقة بالضباط القوميين، مما جعل يونس السبعاوي احد المراقبين الذين تترصد الحكومة حركاتهم وتكتلاتهم وأصبحت أقواله وتحركاته تصل إلى حكمت سليمان وبكر صدقي بانتظام، مما دفعها الى محاولة التخلص من يونس السبعاوي أسوةً ببقية المعارضين، وحين سمع المقدم صفوت سعيد احد أعوان بكر صدقي، الذي كانت تربطه علاقة صداقة بيونس السبعاوي اتصل المذكور بيونس السبعاوي، ونصحه بالسفر الى خارج العراق تخلصا من نقمة بكر صدقي عليه ومخافة أن يتعرض منه إلى انتقام شديد، استجاب يونس السبعاوي لنصيحة صديقه صفوت سعيد وغادر العراق الى لبنان.

ب- اغتيال عبد الله باش عالم يوم ١٦ شباط ١٩٣٧، وظهرت شائعة أفادت ان مقتله كان بتحريض من اعوان بكر صدقي حين حرضوا عليه احد الفلاحين الحاقدين عليه بسبب كونه احد المعارضين لانقلاب بكر صدقي، وكان عبد الله باشي عالم كثير الانتقاد لسياسة بكر صدقي واعماله واكتنف اغتياله غموض تام، اذ لم يعرف الشخص الذي قام بقتله.

ج- اغتيال علي رضا العسكري يوم ٢٢ اذار ١٩٣٧، وراجت على اثر مقتله شائعات افادت انه قد مات منتحراً، الا ان بعض الروايات اشارت الى ان عليا رضا العسكري قد تاثر كثيراً لمقتل اخيه جعفر العسكري، واقسم ان ينتقم لاخيه من قاتليه وعلى راسهم بكر صدقي، وحين وصل ذلك الى اسماع بكر صدقي ارسل بكر صدقي الى جماعة من اعوانه (اسماعيل توحله، و جميل جمال)، وامرهم بقتل علي رضا العسكري، وقد أعلنوا بعد اغتيالهم له انه مات منتحراً.

وطرحت تساؤلات كثيرة عن حقيقة انتحار علي رضا العسكري حول كونه انتحر فعلاً ام قتل بأيدي فاعليه؟.

وأشارت الروايات انه في يوم ٢٢ آذار ١٩٣٧م كان علي رضا العسكري وحده في داره بعد ان خرج جميع أفراد عائلته خارج الدار في ذلك اليوم فزاره جماعة من الأشخاص ممن لديهم علاقة عمل به تتعلق بمعمل النجارة الذي يملكه، إذ طلب إليهم انتظاره في مكان العمل، لحين قيامه بحلاقة وجهه وارتداء ملابسه لكنه قبل أن يكمل حلاقة وجهه خر صريعاً يتخبط بدمه، وقد وضعت جثته على سطح الدار.

هنالك تساؤلات عدة حول الأسباب التي دفعت علي رضا العسكري إلى الانتحار وبخاصة انه لديه مصدر جيد للمعيشة المتمثل بامتلاكه لمعمل نجارة، جعله بعيداً عن العوز المادي، وما الدافع لقيامه بحلاقة وجهه طالما سيقدم على الانتحار؟، وما الذي حمله على الانتحار على سطح الدار؟.

ويتضح من ذلك أن عملية اغتيال علي رضا العسكري اقرب إلى المنطق من قيامه بالانتحار،وبالتالي فان أصابع الاتهام تشير إلى ضلوع بكرصدقي،وأعوانه في عملية الاغتيال.

د- اغتيال عبد القادر السنوي: بتاريخ ٢٦ اذار ١٩٣٧، اذ صادف ان عرض على مجلس الانضباط العام الذي كان عبد القادر السنوي عضواً فيه قضية تقاعدية لمحمود جودت، احد الأشخاص المقربين من بكر صدقي، وحين وجه عبد القادر السنوي أسئلة قانونية إلى محمود جودت تتعلق براتبه التقاعدي،امتعض الأخير من تلك الأسئلة وتهجم على عبد القادر السنوي وبقية أعضاء المجلس المذكور، ثم طلب محمود جودت تأجيل النظر في قضيته. على الرغم من تدخل بكر صدقي لصالح محمود جودت، إذ طلب بكر صدقي من عبد القادر السنوي أن لا يزعج الناس بتطبيق القانون حرفياً، وان لا يتشدد في قضية تقاعد محمود جودت، إلا أن عبد القادر السنوي أصر على تطبيق أحكام القانون. قام محمود جودت يوم ٢٦ اذار ١٩٣٧م باطلاق عيارات نارية صوب عبد القادر السنوي فارداه قتيلاً، وذلك حين نزل عبد القادر السنوي من سلم وزارة المالية.

حكم على الجاني محمود جودت بالإعدام وفق المادة (٢١٤) من قانون العقوبات البغدادي(٣)، وسبب ذلك الحكم موجة من الاستغراب والاحتجاج لدى الاكراد، وادعى اخوته بانه مصاب بالجنون، وعلى اثر ذلك تم تمييز الحكم في محكمة تمييز العراق، وبتأثير من حكمت سليمان وبكر صدقي على قرارات المحكمة وضع محمود جودت تحت المشاهدة والرقابة الصحية للوقوف على حقيقة ادعاءات اخوته.

قدم الجاني محمود جودت الى المحاكمة من جديد، واصدرت المحكمة حكما بالاعدام عليه يوم ٢١ ايلول ١٩٣٧م، ونفذ حكم الاعدام عليه يوم ٢٠ تشرين الثاني من العام نفسه. ومن خلال تناول مجريات تلك القضية، يتضح مدى تأثير حكمت سليمان وبكر صدقي على وقائع المحكمة، مما قد يرجح كون عملية القتل المذكورة جرت بموافقة بكر صدقي.

عن رسالة (ظاهرة الاغتيالات السياسية في العهد الملكي)

اسطوانات جقماقجي.. رحلة طويلة مع الفن والانتاج الموسيقي العراقي

مصطفى محمد

في قلب خان المدلل بمنطقة الميدان في بغداد يتألق محل "أسطوانات جقماقجي" كإحدى الروائع التي تحكي قصة طويلة عن الفن والموسيقى العراقية، إذ يعتبر مرآة للتراث البغدادي في حين يصفه آخرون بأنه "خزان للزمن" يحتضن مقتنيات تنبض بالتاريخ.

في زاوية المتجر بخان المدلل، يجلس نجم جقماقجي الملقب بأبي محمد، صاحب المحل الذي يحمل اسم عائلته، متحدثاً عن جذور عائلته الراسخة في الموصل حيث أسس جده الحاج فتحي جقماقجي شركته في عام ١٩١٨.

يفخر نجم بالجدّ المؤسس ويحكي قصة انتقال الشركة إلى بغداد في عام ١٩٣٩ عندما افتتح الجد أول مقر للشركة في منطقة الحيدر خانة بشارع الرشيد، متخصصًا في الكهربائيات والوكالات التجارية. ومع مرور الزمن، قام الجقماقجي بتأسيس استوديو خاص بشركته وبدأ بتسجيل حفلات المطربين، وكانت هذه بداية رائدة في عالم التسجيل في العراق.

استفادت الشركة آنذاك من تكنولوجيا ذلك الوقت بتسجيل الأغاني على الاسطوانات الحجرية، وأبدت استعدادها لاستضافة الفنانين وتسجيل أدائهم، وكانت ترسل التسجيلات إلى اليونان ليتم نسخها وتوزيعها، ثم تألقت عملية تداول الاسطوانات في الأسواق، خاصة بعد اعتماد مادة البلاستيك في من بين الفنانين البارزين الذين سُجِّلت أعمالهم على اسطوانات الشركة "داخل حسن"، و"مسعود العمار تلي"، و"حضيري أبو عزيز"، و"ناظم الغزالي"، وغيرهم كثيرون.

هذه الأسطوانات كانت وسيلة للمحافظة على التراث الموسيقى في العراق، فلولاها لما عرف العديد من هذه الأسماء ولما وصل إلى مسامع جيل اليوم، كما يقدر العديد من الناس قيمة هذه الأسطوانات باعتبارها جزءًا من تاريخهم الفني والثقافي.

المحل الذي يديره نجم حالياً يحمل ذكريات لا تمحى، حيث كان يُسجل فيه المطربون والمطربات، وتُرسل الأصوات إلى السويد لطبعها على أسطوانات تتحفنا بألحانها النادرة.

وإلى جانب تسجيل الأغاني العراقية، كانت الشركة تمتلك وكالات لأسطوانات عربية بارزة مثل "كايرو فون" و"صوت القاهرة" و"صوت الفن" لتضيف مزيداً من التنوع على أسطوانات الموسيقى المعروضة في الأسواق العراقية، والتي تشمل أعمالاً لمختلف الفنانين والمطربين العراقيين والعرب.

الشركة التي بنيت على أسس صلبة لم تقتصر على الأسواق المحلية، بل امتدت تأثيراتها إلى الدول العربية، ولا تزال أغانيها العراقية المميزة مطلوبة ومحبوبة، خاصة في دول الخليج حيث يجد الجمهور جاذبية خاصة في لهجة الأغاني العراقية.

وعلى الرغم من التقدم التكنولوجي وظهور وسائل التسجيل الحديثة، يظل هناك إقبال قوي على شراء الأسطوانات، بحسب أبي محمد، خاصة بين عشاق الفن التقليدي والموسيقى العراقية الأصيلة، و"يعكس هذا الاهتمام استمرار تأثير الأسطوانات في إشباع رغبات الجمهور الباحث عن تجارب فريدة وأصوات تحمل قصصًا وتراثًا فنيًا" يقول.

مع تقدم التكنولوجيا، استمرت أسطوانات جقماقجي بالتواجد كعلامة فارقة في عالم الإنتاج الموسيقي العربي، ورغم التحديات والصعوبات التي واجهتها، إلا أن الشركة ظلت مواظبة على تسجيل الإرث الفني العراقي.

لكنها واجهت في مجال بيع الأسطوانات تحديات وصعوبات عكّرت أحيانًا من صفو الأجواء خلال بعض الفترات. ويعزو أبو محمد ضعف التسويق إلى "تغييرات طرأت على عادات الاستهلاك بسبب تطور التكنولوجيا حيث انتقل الاهتمام إلى الكاسيت الذي يحتوي على مجموعة من الأغاني، فأصبح بديلًا شائعًا حينها، حيث يمكن تسجيل مجموعة من الأغاني على شريط واحد".

على الرغم من هذه التحديات، استطاعت الشركة التكيف والتغلب على الصعوبات من خلال التحول نحو التكنولوجيا الحديثة، فبدأت بإنتاج الأسطوانات على شكل أقراص CD، في استجابة منها لتوجهات المستهلكين نحو الوسائط الحديثة.

"هذا التكيف عكس إصرار الشركة على البقاء رائدة ومتميزة في مجالها عبر العقود المتعاقبة" يقول أبو محمد.

اليوم، يواصل متجر "جقماقجي" تاريخه الفني الكبير، حيث يفتح أبوابه صباحًا من العاشرة حتى الرابعة، ليستمر في تقديم أسطوانات تحمل تراث العراق إلى عشاقه في الداخل والخارج. يقصد المحل أولئك المهتمين بالاسطوانات وبجمع الإرث الموسيقي العراقي، يستقبلهم أبو محمد ملبياً توقعات واحتياجات عشاق الفن في رحلة استماعهم.

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

رئيس التحرير التنفيذي: علي حسين
سكرتير التحرير: رفعة عبد الرزاق

العدد (5980) السنة الثالثة والعشرون - الاثنين (8) أيلول 2025
www.almadasupplements.com

"22عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"
ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون